

قراءة مبعثرة في صورة مجمعة

علي جازو



نوشيروان مصطفى وتحالف الخدمات بقيادة الحزب الإسلامي) ثلث أعضائه، أي ١١١ نائباً. أيكون حضور الرئيس طالباني، الذي أعلن في ٢٠٠٧ إلغاء اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران، جزءاً من الحملة الانتخابية حينها؟

جدّة الصورة لا تضيف أية ميزة خاصة عدا أنها تقدم إشارة غير ملاحظة وربما غير ذات قيمة. الرئيس الطالباني بدين بدانة مفرطة، وهو من مواليد ١٩٣٣. بعد أكثر من وعكة صحية استطاع التغلب عليها واستئناف حيويته المكثفة. وبشجاعة نادرة، وحس وطني رفيع تحمل إدارة بلد شديد التعقيد يمر في أخطر مراحلها من حжим دولة الحزب الواحد والعشيرة الواحدة إلى المرونة الوعرة التي تتطلبها توازنات دولة التعدد الفيدرالي الصعبة التي لم تستقر بعد على نظام قانوني ومؤسسي متين يحفظ دوام الدولة بما تعنيه من استقرار وأمن في المقام الأول.

إن التحضير المديد والكبير (٨٥٠ ألف نسخة من دستور إقليم كردستان العراق جرى توزيعها) للاستفتاء على الدستور يشكل لحظة سياسية بالغة الأهمية، دافعة الفعالية السياسية الكردية في العراق إلى طور من الرهان الجدي على إكمال مشروع الإقليم الفيدرالي دستورا وواقعاً.

السيدة عقيلته (ابنة الشاعر والمفكر إبراهيم أحمد، أحد مؤسسي الديمقراطية الكردستاني) نحيلة هادئة ومبتسمة فيما ضوء صغير يلمع بخفوت قرب أصابع يديها المضمومتين نصف إضمامة. إنها الأكثر بساطة في الملبس والجلسة. يشبك نائب رئيس الوزراء العراقي برهم صالح أصابع يديه، فيما رأسه منحني إلى الأسفل ونظرته تخفي نفوراً رقيقاً، تأقفاً ما، وهو ربما كان يؤجل ابتسامته ساخرة. إنه الوحيد الذي لا ينظر في ما حوله. لماذا يبدو السيد برهم صالح خارج فضاء الصورة؟ أهو الوحيد الذي لا يثق بالصور؟ أهذه صفة من صفات إحساسه بالغربة أو عدم الانسجام مع المحيط الجماهيري المتحمس؟ ثمّة امرأة ريفية تزغرد وخلفها صبيتان أكلت البهجة نظراتهما المتحمسة، ويمكن من شكل ثيابهما الإحساس بفقرهما. ما رأي السيدة هيروخان طالباني في أحوال

الرئيس العراقي السابق جلال طالباني وعقيلته السيدة هيرو أحمد. إلى جانبه نائب رئيس الوزراء العراقي (حين التقاط الصورة) برهم صالح في افتتاح مهرجان عشيرة "الجاف"، أيار ٢٠٠٩.

بمناسبة إعادة تنصيب السيد "مام" جلال طالباني رئيساً لجمهورية العراق الفيدرالي، يوم التقطت الصورة المرفقة هنا، تحاول هذه الأسطر أن تقرأ بعض سيرة الرجل وأن تستخلص.

الصورة حديثة على نحو ما، لم يمض عليها غبار الزمن. التوقيت والمكان حاضران. إنها توّقت مهرجان عشيرة "الجاف" الكردية لدورته السادسة. العشيرة صاحبة تضحيات كبرى في الحركة التحررية الكردية، أما المكان فقريب من السليمانية، العاصمة الثقافية لكردستان العراق والمركز العريق للاتحاد الوطني الكردستاني، حزب طالباني.

تأسس الاتحاد بداية في دمشق إبّان عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد في ١ حزيران ١٩٧٥، بعيد اتفاق ٦ آذار من العام نفسه بين صدام حسين وشاه إيران بوساطة الرئيس الجزائري هواري بومدين وبخطيط من الرئيس اللاحق والحالي عبد العزيز بوتفليقة الذي كان وزير الخارجية حينذاك. بموجب الاتفاق تنازل العراق عن شط العرب، وقطعت الإمدادات الإيرانية عن الأكراد، وتخالذت الولايات المتحدة (هنري كيسنجر) في دعمهم، ما أدى إلى استسلام قوات الثورة الكردية بقيادة أشهر قادة الأكراد، الملا مصطفى البرزاني (كان طالباني شديد الإعجاب به، وإن انشّق عنه).

كان السيد طالباني شخصية بارزة في الحزب الديمقراطي للبرزاني (لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة حين أصبح عضواً في لجنته المركزية، وكان موفد الملا البرزاني إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر). بعد زمن طويل، وفي ٢٥ تموز ٢٠٠٩، جرت انتخابات برلمان الإقليم وترافقت مع انتخاب رئيس جديد له، فاحتفظ الرئيس مسعود البرزاني، نجل الملا مصطفى، بمنصبه (حصد حوالي ٧٠٪ من أصوات الناخبين)، وتولّى السيد برهم صالح رئاسة الوزراء عن القائمة الكردستانية الموحدة في برلمان جديد يشكّل المعارضون له (تحالف التغيير والإصلاح بقيادة

نادراً ما يلوح. لم يتسن له حضور حشود جماهيرية كثيرة لكي يلوح. كان أشبه برحالة من عاصمة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر.

ذاكرة التلويحات الرئاسية مريرة. يكفي أن نتذكر كَفَّ صدام حسين العسكرية، كَفَّ القتل لا غير. لكن للرئيس طالباني صورة يُلَوِّح فيها في هذا المهرجان نفسه. ولا تبدو تلويحته خطيرة قدر ما هي أليفة ومتوددة. نظرته كذلك ليست نظرة حديدية. إنها متأملة على الأرجح. إنها نظرة توحى بالتأمل على الأقل. أترأه يفكر في مخرج آمن لمشكلة كركوك المزمنة، أم في المذكرات التي صرح بأنه سيتفرغ لكتابتها بعد أن ينهي الفترة الرئاسية ويغادر منصب رئاسة دولة العراق الفيدرالي نهاية العام الحالي (قبل إعادة انتخابه)، ليكون أول رئيس عراقي سابق على قيد الحياة، بعد كونه أول رئيس كردي في تاريخ العراق. نأمل ذلك من رجل قانوني (وهو كان طالبا في كلية الحقوق بجامعة بغداد، حُمل على الأكتاف العام ١٩٥٢ في شارع الملك غازي وسط بغداد في مظاهرة ضد الاحتلال البريطاني). كان يحلم بأن يكون صحافياً فإذا به رئيس لدولة مرت وتمر بأصعب الظروف وأقساها.

الصورة لا تتكلم. هنا قوتها الدائمة وعصيانها على استنفاد معناها الكلي. الشبكة أعلى الصورة منصوبة للحماية من ضوء الشمس. الشبكة البريطانية الأميركية هي التي حمت الأكراد منذ ١٩٩١. العرب والمسلمون، معظمهم، لم يوفوا بالتزاماتهم القانونية والتاريخية تجاه إخوانهم الأكراد داخل شباك جوارهم القومي والديني المتعصبة. العكس هو ما حدث، والخوف أن يتحول مقموع الأمم إلى قانع اليوم. هل يتحمل الأكراد بجرأة وشجاعة تقرير مصيرهم وسط تغيرات سريعة ودرامية. العشب أسفل الصورة صامت. لكن الأحقاد القومية والدينية تستعر وتعبث بالهواء. العين ترى وترجو وتشك، فيما القلوب مثل الصور تظل مشغولة بصمت مرتجف بين الخوف والطموح.

على اليمين السفلي للصورة ثمة وردة حمراء تتفتح. إنها شعار الاتحاد الوطني الكردستاني، العضو في الاشتراكية الدولية التي تحول دون توقيع الرئيس طالباني

نساء كردستان العراق، تلك التي يؤكد أكثر من تقرير على أنها عسيرة ومتخلفة ومنغلقة (جرائم شرف، فتيات ينتحرن حرقاً، ركود اجتماعي، غلاء معاشي، عدم اختلاط بين الجنسين...). هل السيد برهم صالح يخفي رفضاً صامتاً لطريقة إدارة الرئيس الطالباني مشاكل الفساد والخلافات والانشقاقات في رأس الاتحاد الوطني الكردستاني المنقسم والذي لم يعقد سوى مؤتمرين عامين خلال ثماني عشرة سنة، وهو الحزب الذي خسر، في الانتخابات آنذاك، المزيد من أنصاره، وتعرض لشبه هزيمة كاسحة في معقله بالسليمانية؟.

ستتكرر الخسارة عام ٢٠١٤، وستكون أقسى وأكثر إظهاراً لتدهور الحزب، إذ يحل حزب التغيير (نوشيروان مصطفى) ثانياً ويحل الاتحاد الوطني ثالثاً في الانتخابات البرلمانية الأخيرة، ولا يبقى من قوة حزب الطالباني غير رمزية معنوية تستند إلى إرث تاريخي، فيما الحاضر يبدو شفيفاً ضعيفاً، الأمر الذي يؤخّر تشكيل حكومة الإقليم شهراً بعد شهر، ويطرأ اسم نجل جلال الطالباني، قباد، كي يحل محل الأب العجوز!

الكل يلمسون الأرض العشبية الغزيرة، أحذيتهم هي التي تلمس لا أقدامهم. لا يزال الكرد الأقرب إلى الطبيعة. ماذا لو كانت أفكارهم أيضاً منسجمة وراضخة للطبيعة المتناغمة، الطبيعة التي تُرى ولا تتكلم قط، تتفاعل وتظل مجهولة ونائية وسرية. هل الطبيعة علامة تناغم لا غير؟ هل يفكر الكرد العراقيون بالعودة إلى الجبال؟ ألا يتخوفون من سيطرة المركز في بغداد بعيد استعادته قوة العكس وبطشهم؟

ما يحدث في الموصل التي تحد ريف كردستان العراق من احتكار قائمة الحذباء حكم مجلس المحافظة هناك دليل ساطع على اللاتوافق العربي الكردي في العراق، وأن ثمة من لا يزال يرى أحقية الغالبية الصافية إدارة محافظة بكاملها. إنها الموصل التي أعدم وسط مركزها سنة ١٩١٤ الشيخ عبد السلام البرزاني، والد الملا مصطفى، دون محاكمة، نتيجة وقوفه ضد الحكم العثماني. الرئيس طالباني

يحمي اللحظة الآمنة والمحتمى بها من أي تفتت واضمحلال. إنها سرعان ما تحول إشباع اللحظة الراكدة إلى فكرة متوثبة صوب عمل حيوي فعال.

نائب رئيس الوزراء العراقي السيد برهم صالح ينتظر أكثر مما يراقب. إنه من الشخصيات الأساسية التي تخطط لمستقبل العراق الاقتصادي، وسيكون بعد فترة وجيزة في قمة السلطة الكردستانية العراقية. "هو الآن [آنذاك] على رأس حكومة الإقليم". ثمّة ابتسامة مختفية بنعومة في النظرة الأرضية والمفتحة نحو سكون روح خالصة. إنها مع صاحبها تمضي وحدها بلا جلبه صوب علامة استفهام كبرى. ما الذي يلي كل مهرجان؟ الزيد أم عمق المحبة الحقيقية ودوام المثابرة على العمل دون عناء؟ ما الذي يمكن أن يضيفه السيد برهم صالح إلى إقليم يعتمد في تجارته على تركيا وإيران والخليج، وفي عسكرته على بريطانيا وأميركا، وفي ثقافته وتعليمه وقطاعه المصري والخدمي على خبرات لبنانية وتركية وأوروبية. ما الذي يمكن أن ينجزه صالح لاقتصاد كردستان العراق الذي يعتمد على ١٧٪ من ميزانية العراق الفيدرالي، وهو لا ينتج غير النفط (٦٥٪ من ميزانية الإقليم تصرف على رواتب الموظفين الذين يتقاسم منتسبو الحزبين غنائمها).

ثلاث نظرات أبدية بفضل تأييد عالم الصورة لكل صورة. ثلاث نظرات جلس أصحابها على ثلاث كراس من الحجم والنوع نفسه. ترى أيشبه كل كردي كردياً؟ أهو شعب منسجم ومتناغم بحق؟

كان الرئيس الطالباني يراهن على ضم العراق قوياً ومعافى بانسجام وسلاسة ومحبة، أو كما يصف "بشدة الورد"، في وقت يدعو فيه إلى أول مؤتمر قومي كردستاني يسعى إلى إيجاد حلول سلمية لقضايا أكراد تركيا وإيران وسوريا. تأخذ الورد الحمراء القسم الأصغر من الصورة وهي في تلك الزاوية المهملة. من الجدير بالذكر أن الشعار الانتخابي للقائمة الكردية الموحدة إلى انتخابات إقليم كردستان الأخيرة تتكون من حسان أبيض على خلفية مقسمة بين اللونين الأخضر والأصفر، رمزي الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستاني. هذان اللونان يذكرنا بمأساة مرعبة، فقد كانا يلمعان على خطوط دائرية حول براميل أسلحة كيميائية محرمة قصفت بها طائرات الجيش العراقي حلبجة القريبة من السليمانية العام

على أي حكم بالإعدام. نذكر هنا موقفه المشرف والحريص تجاه مسيحيي العراق حين طُرح دفعهم إلى ترك بلادهم بسبب عنف غير مسبوق ضدهم. الاتحاد الذي كان انفصاله عن الديمقراطي الكردستاني بداية تأسيسه كحزب ذي توجه مختلف، وطابع كفاحي قومي بمزيج اشتراكي ملتبس وغير فعال، محمي بوسط اجتماعي مثقف وتمتدّن. على هذا يعتبر الاتحاد حزب اليسار الكردي عموماً. ومع ذلك فإن اليسار الكردي، ممثلاً بأقوى أحزابه، يرفع مهرجاناً يخص عشيرة كردية. الواقع أقوى من التنظير، والرضوخ أسهل من التمرد. أم أنه الوقت، الحاجة إلى عبور الوقت حتى يتفتح العقل السياسي الكردي على محيط أوسع أو أكثر رقياً كما هو حال الورد الحمراء تتفتح وتتواصل في مسعى مستمر ودرّب وعرة موزعة بين الفورة القومية المبررة بعد طول حرمان والتربة العشائرية الصلبة التي من نتائجها المديدة والخطرة قسوة وانغلاق الوضع الاجتماعي وتردي أحوال النساء وحلول الفساد الريعي والمنافسات ذات الطابع الريفي العشائري.

المسعى المستمر هو ما يبقى من كل عمل. كل صورة تخفي قلقاً ما؛ إنها سيرة درامية مكثفة وجامدة ومثبتة على لحظة خصوبة عامة، وهي قد تخفي أو تؤجل خصاماً لاحقاً. في القلق غير الجامد هذا يتحاور الانتظار الشغوف مع الفارق بين صواب التحليل وعدمه.

تطيل السيدة هيروخان النظر. إنها تحتاج الى وقت أطول لتحضن الاحتفال المرئي بنظراتها. إن لديها فضولاً لا يقل قيمة عن السرور الواضح الثابت على وجهها. ثبات النظرة الهادئة والسابحة في فضاء المحبة المحيط علامة من علامات رعاية لا تكتفي بحضور مهرجان فقط. إنها نظرة تضم فكرة قادرة على إلهام أكثر من مهرجان، هي المعروفة بدعائها السخي للنشاط الثقافي والفني. تبدو نظرة الرئيس طالباني خاطفة ومنقبضة ومسحوبة إلى الداخل. النظرة الخاطفة تنم عن أمرين معاً: عدم الاهتمام الجدي، والقبض على تفهّم عميق ومرن. العقول اللامعة عقول خاطفة. إن نظرة خاطفة، هنا، تفكر بما يلي لحظة ودقة الفهم المرن والمتنقل. إنها تنساب بسرعة خلف اللحظة المحتواة لتقبض على جوهر

١٩٨٨، وهما كذلك لونا عراق دموي عنيف غير بعيد بين حزبي الرئيسين طالباني والبرزاني (١٩٩٤-١٩٩٦).

لم نشر إلى الجرائد أمام الرئيس طالباني المعروف بمتابعته اليومية للصحف. "لكن شهوراً عديدة مضت على الرئيس العراقي وهو قابع في مشفى ألماني، وبقي مع ذلك رئيساً "فخرياً" لجمهورية فيدرالية عرفت التمزق والشقاق أضعاف ما نالت من وحدة وانسجام".

عدا نظرات الرئيس وعقيلته ورئيس وزراء إقليم كردستان، ثمّة نظرات جمهور المهرجان، الجمهور الذي لا يكتفئ بأحوال المهرجان قدر الاحتفاء والابتهاج بالتقرب إلى أصحاب النظرات الثلاث.

